

المحاضرة (1): الإحياء الشعري في المشرق (1)

نشأة مدرسة الإحياء/ مدرسة النهضة الشعرية:

مدرسة الأحياء هي مدرسة مصرية الميلاد والنشأة، انتقل منهجها فيما بعد إلى البلدان العربية، وظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، بعد قيام دعائم النهضة الأساسية، وكانت أول المدارس الشعرية في العصر الحديث، واستمرت إلى أوائل القرن العشرين. وكان رائدها الأول هو الشاعر المصري محمود سامي البارودي (1839هـ/1904م)، ويعود سبب قيامها إلى تدارك ما لحق الشعر العربي من ضعف، وقد كانت في بدايتها خافتة، ثم ما فتئ عودها يشدد وما فتئت مفاهيمها تتبلور واتجاهاتها تتوضح.

وقد أطلق النقاد على الإحياء تسميات عدة: مثل مدرسة الإحياء والبعث، ومدرسة الإحياء والتراث، والمدرسة الاتباعية الإحيائية، والمدرسة الاتباعية في الشعر العربي، وأيضًا مدرسة النهضة، ومدرسة المحافظين ومدرسة العمود الشعري ثم أطلق عليها في مراحلها الأخيرة الكلاسيكية الجديدة.

أما قولنا مدرسة الإحياء: لأن شعراء هذه المدرسة ومن أتى بعدهم، هم الذين أعادوا للشعر العربي حياته من جانب معانيه ومن جانب بنائه الفني، فجددوا في الصياغة ونهجوا منهج كبار شعراء العربية.

وسميت بالبعث؛ لأنها بعثت الحياة في الشعر من جديد، فحركة الإحياء أو البعث حدث طافح بالذلال، ذلك أن الإحياء يتضمن تسليمًا مضمرا بأن الشعر القديم كان قد هوى، أما مفهوم البعث فإنه يحيل هو الآخر إلى الموت.

وهي اتباعية لكونها: لأنه اتبع الصورة النمطية التعبيرية القديمة. وهو كل أدب يبلى المثل الإنسانية المتمثلة في الخير والحق والجمال" وهي المثل التي لا تتغير باختلاف المكان والزمان والطبقة الاجتماعية

وإذا كانت مفاهيم (الإحياء، الإتياع البعث) دالة على الحركة والتحول فإن للمدرسة تسميات أخرى دالة على الثبات (الكلاسيكي، التقليدي، التراث، المحافظ) وهي:

الاتجاه المحافظ لأنه حافظ على عمود الشعر، وعلى الأوزان والقوافي، وعلى قوة المبنى، والمعنى وعلى الصور العربية القديمة، وعلى سلامة اللغة، وقد أكثر شعراؤه البيان البلاغي.

الكلاسيكية: هي مصطلح أوربي ظهر في القرن السادس عشر، وسميت به لكونها مدرسة تحافظ على السالف وتعتمد على العقلانية، وتلتزم بالعروض والقافية وتنتهج منهج الأسلاف.

التقليد: لكون شعراءها احتذوا حذو القدامى في بناء الشعر والصور والأخيلة، والتزموا بعمود الشعر ولم يأتوا بجديد.

تعريف الإحياء:

يقوم التيار الإحيائي في الشعر العربي الحديث على محاكاة الأقدمين وبعث التراث الشعري القديم وإحياء الشعر منذ العصر الجاهلي حتى العباسي والشعر الأندلسي لنفض رواسب عصر

الانحطاط ومخلفات كساد شعره عن طريق العودة إلى القصيد العربية في عصر ذروتها وازدهارها ومن أجل مقاومة التدهور بالعودة إلى المعينات الأدبية والشعرية العربية في عصورها الذهبية ، فعارضوا لغة القدماء وأساليبهم البيانية واقتفوا آثارهم في المعاني والأفكار مهما اختلفت موضوعاتهم ومناسباتها.

ومن أهم الشعراء الذين تزعموا هذا التيار محمود سامي البارودي وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ومحمد الحلوي ومحمد بن إبراهيم، فعاشوا على أنقاض الماضي والتوسل بالبيان الشعري القديم وبعث اللغة البدوية ؛ ومن ثم كانت نقطة التحول والتجديد الأولى في الشعر العربي الحديث تقليدية، التفتت إلى التراث أكثر مما التفتت إلى ذات الشاعر وواقعه.

ويبدو أن شعار العودة إلى الماضي سرعان ما أزيح ليقوم مقامه شعار آخر، هو البحث عن الذات الفردية وتوكيدها، فترك الإحيائيون الباب مفتوحا في وجه التيار الجديد الذي ولد في أحضان هذه الدعوة (الرومانسية).

عوامل الإحياء: يقوم الإحياء على ما يأتي:

1* الحركات الإصلاحية الحديثة، مثل حركة محمد عبد الوهاب فقد تبنت دولة وأوجدتها قوية لها تأثير في الجزيرة العربية. ثم ظهرت كثيرا من الجمعيات والأحزاب السياسية.

2 لما بدأت الحملة الفرنسية كانت وسيلة من وسائل التواصل بالحضارة الغربية، وسببا في ازدهار حركة النشر والطباعة، فقامت مؤسسات ثقافية مثل المطابع والصحافة(الوقائع المصرية، الأهرام المؤيد ونزهة الأفكار) كما أنشأت عدة مجلات مثل الهلال، المقتطف، والرسالة، والكاتب المصري..)

وظهرت الجامعات العلمية، التي كان أبرزها المجمع العلمي العربي، بدعوة من الأستاذ محمد كرد علي والمجمع اللغوي المصري الذي تأسس 1932.

3. ساعدت المطابع على كثرة الكتب المؤلفة والمترجمة والمنشورة، فكان لا بد من تأسيس المكاتب لتيسير المراجع ومن بينها: دار الكتب المصرية والمكتبة الأزهرية ومكتبة جامعة القاهرة.

4. ثم كان اشتداد الصلة بالثقافة الحديثة عن طريق المستشرقين الغربيين المهتمين بعلوم الشرقيين ومعارفهم، وعن طريق البعثات، حيث أفاد أعضاءها من معارف الغرب وأدبه وفنه وعادوا يحملون علوما وأفكارا جديدة.

5. حركة التأليف والترجمة حيث اطلع العرب على علوم الغرب وقاموا بترجمتها لتتم فائدتها وقد كانت حركة الترجمة ضعيفة في بدايتها وتنوعت لتشمل جميع المعارف

6. كانت المدارس تقتصر على الكتاتيب، ثم كثرت وتنوعت فروعها فأنشأ محمد علي باشا مدرسة للطب ومدرسة للألسن 1853 أناط إدارتها لرفاعة رافع الطهطاوي، وأسست مدرسة دار العلوم ونظم الأزهر ثم الجامعة المصرية.

7. بدأ إحياء التراث ببروز نخبة طلابية ترنو إلى الإصلاح ومواجهة الثقافة الوافدة بسلاح التراث

8. هجرة عدد كبير من نصارى الشام إلى مصر وإنشأؤهم مراكز لهم
9. معالم النهضة الحديثة في الشام والعراق التي دعا إليها بعض الباشوات مثل مدحت باشا وتأسست فيها بعض الصحف مثل الزوراء في العراق وسوريا ودمشق.

خصائص الشعر الإحيائي:

- يشير صلاح لبكي إلى وصف الطلول والإبل، وتواتر ظواهر الاستعارة والتشبيه والنزوع إلى الزخرف اللفظي، ومن جهته يذهب إبراهيم السعافين إلى أن شعراء الإحياء كانوا يميلون إلى الأشعار القديمة، ويؤثرون شعر الأمراء الفرسان، كما يميلون إلى شعر الفخر والبطولة والحكمة، بل يذهب هذا الناقد إلى القول: إنهم عاشوا بمزاج القدماء ومثلهم العليا وكان الفرد «النمطي» النموذجي هو الذي يستولي على اهتماماتهم.
- كتبوا وفق الأغراض الشهرية القديمة (الرثاء والمديح والغزل والوصف والفخر...) مما جعل نصوصهم تعرف أحيانا بالنظم أكثر منها بالإبداع.
- لم تقف محاكاتهم عند البناء والمضمون، بل تجاوزت ذلك إلى محاكاة اللغة الشعرية القديمة، والانضواء تحت لواء المعجم القديم (الألفاظ التراكيب الصور).
- التقيد بالبحور الشعرية القديمة المعروفة، واعتماد البناء القديم (العمودي)، والتزام القافية الموحدة في القصيدة، فتلك مدرسة العمودية والعموديين التي تحافظ على عمود الشعر محافظة أصيلة، غير أن بعضهم وحد موضوع القصيدة ولم يعدد أغراضها.
- الاهتمام بنية الكلمة من حيث فصاحتها وسلامتها اللغوية، والحفاظ على سلامة الجمل التركيبية
- اعتمدوا البناء العقلاني للصورة ولم يعتمدوا البناء الخيالي، ولذلك كان شعرهم خاليا من الأساطير وإن وجدت فتوظيفها بسيط.

شعراء المدرسة الإحيائية:

إذا كان جميع دارسي مدرسة الإحياء والبعث الشعرية يقرون بأن محمود سامي البارودي رائدها، فإننا في الوقت نفسه نعثر على إشارات صريحة تبيّن أن بدايات الاتجاه الإحيائي كانت مع الشعراء علي الليثي وعبدالله فكري وعائشة التيمورية. أما أبرز شعراء مدرسة النهضة الشعرية، فنذكر منهم أمير الشعراء أحمد شوقي (1869-1932م) ومحمد حافظ إبراهيم (1872-1932م) من مصر وشكيب أرسلان (1869-1946م) وخليل مطران (1872-1949م) وعمر أبو ريشة (1910-1990م) وسليم الزركلي (1905-1989م) ومحمد اليزم (1887-1955م) وعدنان مردم بك (1917-1989م) من بلاد الشام، ومعروف الرصافي (1875-1945م) وأحمد الصافي النجفي (1897-1977م) وجميل صدقي الزهاوي (1863-1936م) من العراق، وأسماء أخرى ذات بصمة في شعر الإحياء من اليمن⁽⁸⁾ ومحمد بن عثيمين (1854-1944م) من السعودية ومحمد الشاذلي خزندار (1881-1954م) ومحمد غريط (1880-1949م) وأحمد رفيق المهدي (1898-1960م) وأحمد علي الشارف (1872-1959م) من المغرب العربي⁽⁹⁾.

محمود سامي البارودي:

أفلح البارودي في استغلال إمكانات الشعر العربي القديم ولم يكن مقلدا فقط وإنما عمل جاهدا على أن يرجع للشعر جزالته ونصاعته ورسانته وكان يقوم بدور الرقيب المحافظ على الشعر وإذا كان قد حاكى القديما في أغراضهم وطريق عرضهم للموضوعات وفي أسلوبهم وفي معانيهم لكن كان له تجديدا واضحا في شعره من حيث التعبير عن شعوره وعن مشاهداته وقد أشاد عميد الأدب العربي طه حسين بموهبته قائلاً: أصبح فداً من حيث إنه استطاع أن يرد إلى الشعر العربي من القوة وجزالة اللفظ ورسانة الأسلوب ودقة المعنى ما كان قد بعد به العهد وطالت عليه القرون.

ويعتز الشاعر بعودته إلى التراث فيقول :
 وما ضرني أنني تأخرتُ عنهم = = وفضلِي بين العالمين شهيرُ
 فيا ربما أخلِي من السَّبِقِ أوَّلُ = = وبزَّ الجيادِ السَّابِقَاتِ أخيرُ

فقد قال مقلدا ميمية عنتره إثر نفيه إلى سيلان قصيدة مطلعها ((كم غادر الشعراء من قدوم ولرب قال بزتا ومقدم)) إلى أن يقول:

أَحْبَبْتُ أَنْفَاسَ الْفَرِيضِ بِمَنْطِقِي وَصَرَغْتَ فُرسَانَ الْعِجَاجِ بِلَهْدَمِي
 وَفَرَعْتُ نَاصِيَةَ الْعُغْلَى بِفَضَائِلِ هُنَّ الْكَوَاكِبُ فِي النَّهَارِ الْمُظْلِمِ
 شَلَّ مِصْرَ عَيْيِ إِنْ جَهَأَتْ مَكَانَتِي نَحُ بَرَكَ عَنْ شَرَفِي وَعِزِّي أَقْدَمِ
 بَلَدٌ نَشَأَتْ مَعَ النَّبَاتِ بِأَرْضِهِ وَأَنْمَتْ نَغْرَ غَدِيرِهِ الْمُتَبَسِّمِ
 فَتَسِيْمُهَا رُوجِي وَمَعْدِنُ ثَرْبِهَا جِسْمِي وَكُوْثُرُ نَيْلِهَا مَحِيَا دَمِي
 فَإِذَا نَطَقْتُ فَبِالْتَّنَائِ عَلَى الْإِذِي أَوْلَاتِهِ مِنْ فَضْلِ عَلِيٍّ وَأَنْعَمِ
 من شعره التقليدي أيضا:

يم يقف محمود سامي البارودي عند تقيد لغة الشعر القديم وشكله بل شمل تقليده الموضوعات ومعانيها وأغراضها فعاد إلى البيئة الصحراوية البدوية ليقول:

حضارية الأنساب إلا أنها بدوية الطبع والتركيب
 ووقف على الأطلال مقلدا زهير بن أبي سلمى فقال: (الطويل)
 أَلَا حَيٍّ مِنْ أَسْمَاءَ رَسَمَ الْمَنَازِلِ وَإِنْ هِيَ لَمْ تَرْجَعْ بَيَانًا لِسَائِلِ
 خَلَاءٍ تَعَفَّنَا الرُّومُ وَالنَّقْتُ عَلَيْهَا أَهَاضِيبُ الْغُيُومِ الْخَوَافِلِ
 فَلَأَيًّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَرَسُمِ أَرَانِي بِهَا مَا كَانَتْ بِالْأُمْسِ شَاغِلِ
 وكتب في شعر الصنعة وإن كان ذلك نادر في ديوانه

رَجَعَ الْخِديوي لِمِصرِهِ وَأَنْتَ طَلَائِعُ نِصرِهِ
 وَتَهَلَّلْتُ بِقُدُومِهِ فَرَحًا أَسْرَةً عَصْرِهِ
 فَلْتَبْتَ هَجًّا أَوْ طَائِفُهُ بِحُلُولِهِ بِقِصرِهِ

ويقول مقلدا البحري (سلام عليكم لا وفاء ولا عهد أما لكم عن هجر أحبكم بد):
 هُوَ الْبَيْنُ حَتَّى لَا سَلامَ وَلَا رَدُّ وَلَا نَظْرَةَ يَفِيضُ بِهَا حَقَّهُ الْوَجْدُ
 فَيَا قَلْبُ صَبْرًا إِنْ أَلَمَّ بِكَ النَّوَى فَكُلُّ فِرَاقٍ أَوْ تَلَاقٍ لَهُ حَسْبُ

عَلَى هَذِهِ تَجْرِي اللَّيَالِي بِحُكْمِهَا فَأَوْنَةٌ قُـرْبٌ وَأَوْنَةٌ بُـعْدٌ
وهذه قصيدة للبارودي تتطابق وزنا وموسيقى مع قصيدة للشاعر أبي تمام:

وَاطْوَلَ شَأْنُـــــــــــــــــــــــــوقِي إِلَيْكَ يَا وَطَنُ وَإِنْ عَرَّتْنِي بِحُبِّكَ الْمِــــــــــــــــحَنُ!

أَنْتَ الْمُنَى وَالْحَدِيثُ إِنْ أَقْبَلَ الصُّـ بُحُ، وَهَمَّــــــــــــــــي إِنْ رَتَّقَ الْوَسْنُ

فَكَيــــــــــــــــفَ أَنْسَاكَ بِالْمَغــــــــــــــــيبِ وَلِي فَيْكَ فُؤَادٌ بِالْحُــــــــــــــــبِّ مُرْتَهَنُ؟

لَسْتُ أَبَالِي وَقَدْ سَلِمْتُ عَلَى الذِّــــــــــــــــءِ هُرِّ إِذَا مَا أَصَابَــــــــــــــــنِي الْحَزْنُ

لَيْتَ بَرِيــــــــــــــــدَ الْحــــــــــــــــامِ يَخــــــــــــــــبرني عَنْ أَهْلِ وَدِي فلي بهم شجنُ

أَهُمْ عَلَى الْوُدِّ، أَمْ أَطــــــــــــــــافَ بِهِمْ وَاشِ أَرَاهُمْ خِلافَ مَا يَقــــــــــــــــنوا؟

فإِنْ نَســــــــــــــــوني فَذَكَّرْتِي لــــــــــــــــهم وَكَيْفَ يَنْسَى حَيَاتَهُ الْبــــــــــــــــدنُ؟

نظريته في الشعر:

عرف محمود سامي البارودي الشعر بقوله هو لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوات الفكر،
فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب ، فيفيض بلألؤها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان فينفث بألوان
من الحكمة ينبجج بها الحالك ويهتدي بدليلها السالك، وقال أيضا: أقول بطبع لست أحتاج بعده إلى
المنهل المطروق والمنهج الوعر

ثم حدد وظيفته في قوله: تهذيب النفوس وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق